



المحرر

مما قرأت

كيف يصنع الـ؟ بهام المعنى؟

في مقال سابق تناولت أن وضع المبتدأ في صدارة الجملة الاسمية؛ وهو موضعه الأصلي، ليس حياداً بل اختيار واعٍ؛ إذ يمكنك أن تُقدِّم المبتدأ أو تؤخِّره لإحداث تأثيرات مختلفة، ليس فقط تلك التي تحدِّث عنها البلاغيون. وما لم يتحدثوا عنه أهم مما تحدثوا عنه. وفي مقال ثانٍ تناولت الفاعل والمفعول؛ ذلك الترتيب الذي يبدو بديهياً [...]

بقلم رشاد عبد القادر ١٢٠ نيسان ٢٠٢٦ • قراءة في ١٦ دقيقة

مارسيل بروسست

تُستخدم بقدر ما يخدم المعنى.

إذن، لم يكن المنشأ الأول علم اللغة لذاته، إنما خدمة النص.

ومع أن الكوفة احتفظت بصلات أوثق بهذا الأصل التفسيري، فإن طريقها في التعامل مع اللغة واجهت مشكلة مع مرور الوقت. فكلما كثرت الحالات، وكثرت القراءات، وكثر الداخلون في اللغة من غير أهلها، لم يعد ممكناً الاكتفاء بالشرح الجزئي. صار هناك ضغط خفي يدفع نحو شيء آخر: نحو التعميم. فبدل أن تفسر كل جملة على حدة، أصبح من الأسهل أن تقول: هذه قاعدة، وما يحدث هنا مثال عليها.

هنا تبدأ النقلة الأولى نحو التعقيد، لكنها لا تظهر بعد بوصفها تعقيداً، بل بوصفها اختصاراً للجهد. القاعدة تُغي عن عشرات الشروح. لكن كل قاعدة تفتح باباً جديداً: إذا كانت هذه قاعدة، فماذا نفعل بالاستثناء؟ وإذا وُجد استثناء، هل هو حقيقي أم له تفسير؟ وإذا كان له تفسير، فما هو؟

في هذه اللحظة بالذات، بدأت اللغة تتحول من مادة تُستعمل إلى مادة تُفسَّر؛ لا تفسيراً دليلاً كما كان في البداية، أو كما فعل الكوفيون، بل تفسيراً بنوياً. ثم جاءت اللحظة الحاسمة: محاولة بناء نظام كامل، وهنا برزت البصرة.

ما فعله سيوبه في البصرة لم يكن مجرد جمع لهذه القواعد، بل محاولة لإغلاق النظام؛ أي جعل اللغة قابلة للتفسير الكامل داخل شبكة من العلاقات الداخلية: هذا يرفع، وذاك ينصب، وهذا يتعدى، وذاك يُحذف، وهذا يُقدَّر. لم يعد هناك مكان للصدفة أو للسليقة وحدها. كل شيء يجب أن يكون له موقع داخل النظام.

وهكذا انفصل المبني عن المعنى، على النحو الذي لم يكن مألوفاً من قبل.

لكن هذه الخطوة تحمل في داخلها بذرة التعقيد الهائل؛ لأنك عندما تقرر أن كل شيء له تفسير، فإنك تُلزم نفسك بتفسير حتى ما لا يحتاج إلى تفسير.

خذ مثلاً بسيطاً: الجملة التي تُقال: العرب قالوها هكذا.

في النظام الجديد، هذا الجواب لم يعد كافياً. صار لا بد من السؤال: لماذا قالوها هكذا؟ ما العامل؟ ما العلة؟ هل يمكن القياس عليها؟ وإذا لم يمكن، فلماذا؟

كل سؤال من هذا النوع لا يُغلق، بل يفتح سؤالاً آخر. وهكذا تبدأ السلسلة:

قاعدة «» استثناء «» تعليل «» تعليل للتعليل «» تقسيم «» تقسيم للتقسيم.

وهنا لا يكون التعقيد نتيجة خطأ، بل نتيجة منطق داخلي بنيوي صارم.

إذن، الفرق بين الكوفة والبصرة ليس مجرد خلافاً صغيرة بين مدرستين متشابهتين، بل بين طريقتين مختلفتين في النظر إلى اللغة: فالكوفة أقرب إلى المعنى، وأقرب إلى التفسير، وأقرب إلى القراءات، وأقرب إلى التراث الأقدم، بينما البصرة، لا سيّما عند سيبويه، أقرب إلى التحليل البنيوي، وأقرب إلى التجريد، وأقرب إلى بناء جهاز نظري مستقل.

وحاولت كتب التراجم والطبقات والنحو اللاحقة أن تقلل من إسهام القراء في نشأة النحو. وكان لسان حالها يقول: إذا كانت الكوفة متصلة بالقراء،

وفي مقال ثانٍ تناولت الفاعل والمفعول؛ ذلك الترتيب الذي يبدو بديهيًّا حتى نكتشف أنه ليس كذلك. فالتنحو يرى في تقديم الفاعل على المفعول أصلاً يُحافظ عليه، والبلاغة ترى فيه غرضاً يُؤدِّي. لكن ما لا يراه أحدهما أن هذا الترتيب يصنع أحياناً ما لا تستطيع الكلمات وحدها صنعه؛ يحبس التصادم، ويؤخِّر الكشف، ويجعل الضمير المجهول توتراً لا خطأً.

وقد أوضحت في كليهما كيف تطوّر النحو بطريقة فصلت ما بين المبني والمعنى بما لا يخدم مهنة الكتابة. وأورده هنا في نص قابل للطّي.

كيف صار النحو عائقاً أمام الكتابة؟

لستُ من المغرمين بالنحو العربي. خضتُ محاولاتٍ عديدة، لكنّ جميعها باءت بالفشل؛ ليس لأنّ النحو صعبٌ ومعقّد، وهو كذلك، بل لأنّه عند حدٍّ معيّن، يصبح لا طائل من ورائه. من الجيد أن تتعلّمه، لكنه لا يفيدك كثيراً في حياتك بوصفك كاتباً.

الحق، أن النحو العربي لم يبدأ علماً، بل بدأ مشكلة؛ مشكلة فهم. بدأ داخل التفسير والقراءات وشرح ألفاظ القرآن. ففي اللحظة التي أصبح فيها النص القرآني محور الحياة الدينية والفكرية، لم تكن اللغة موضوعاً مستقلاً، بل كانت شيئاً يُستخدم لفهم ذلك النص. لم يكن أحد يسأل: كيف تعمل اللغة؟ بل كان السؤال الوحيد: ماذا تعني هذه الآية؟ كيف تُقرأ؟ ولماذا اختلفت القراءة؟ وأنها أدق في الدلالة؟

في هذه المرحلة، لم تكن هناك حاجة إلى بناء قواعد عامة. كان يكفي أن تُفسّر كل حالة في سياقها. فإذا وُجدت عبارة غامضة، فُسِّرت، وإذا ظهرت قراءة مختلفة، سُرحَت. كانت اللغة هنا تُعالج موضعياً، لا نظرياً. ولذلك كانت المصطلحات قليلة، مرنة، وغير مستقرة، لأنها لم تكن جزءاً من نظام، بل أدوات مساعدة تُستعمل وتُترك. وقد تطور هذا التقليد، في المقام الأول، في الكوفة.

وهذا على خلاف التصور الشائع القائل إنه كان هناك منذ البداية «مدرستان» واضحتان: بصرة وكوفة، وأن النحو كان علماً ناضجاً مبكراً، وأن تطوره كان يسير في خط مستقيم من أبي الأسود إلى سيبويه ثم من بعده، وأن البصرة كانت تمثل العلم الصحيح، وأن الكوفة أقل قيمة. هذه الصورة صنعتها المصادر المتأخرة إلى حد كبير، ولا تعكس الواقع المبكر بدقة.

أَيَّ النَّحْوِ فِي الْبَدَايَةِ لَمْ يَكُنْ «نَحْوًا» بِالْمَعْنَى الْمَتَأَخِّرِ، بَلْ كَانَ اِهْتِمَامًا
بِالنَّصِّ الْقَرَّائِيِّ: كَيْفَ يُفْهَمُ؟ كَيْفَ تُشْرَحُ أَلْفَاظُهُ؟ كَيْفَ تُبَيَّنُ مَعَانِيهِ؟ كَيْفَ
تُفْهَمُ وَجْهَ الْقِرَاءَةِ فِيهِ؟

في تلك المرحلة، لم تكن العلوم منفصلة كما صارت لاحقاً. لم يكن هناك حدٌّ صارم بين: التفسير، والقراءة، واللغة، والأخبار، والفقه، والعقيدة، وشرح الألفاظ، والنحو. بل كانت هذه كلها متداخلة داخل جهد واحد هدفه الأساسي: فهم كلام الله.

وكثيرٌ من المصطلحات التي نعدها لاحقاً «نحوية» بدأت في الأصل كلماتٍ عادية غير تقنية استعملها المفسرون والقراء في شرح النص، مثل ألفاظ من نوع: نعت، وخبر، وصلة، وبدل، واستفهام، وماضي، ومستقبل. وهذه لم تكن، في أول أمرها، جزءاً من جهاز علمي صارم، بل ألفاظاً تفسيرية مرنة

والقراء ليسوا علماء لغة حقيقيين، فالكوفة إذن أضعف علمياً. لقد أعادوا بناء تاريخ النحو بطريقة فضّلت البصرة وههّشت دور القراء.

لكن في الواقع، كان القراء فعلاً مؤثرين، وإلا لما احتاجت المصادر المتأخرة إلى محاربتهم أو تقليل شأنهم. أي إنّ تهمة شتمهم في الرواية المتأخرة عن النحو ليس دليلاً على غيابهم، بل قد يكون دليلاً على قوة حضورهم القديم.

الحقيقة أنّ سيبويه لم يكن مجرد جامع لما قبله، بل أحدث قطعة كبيرة. لم يعد هدفه الأساسي تفسير القرآن، ولم يعد يشرح اللغة فقط لفهم النص، بل صار هدفه تحليل الوقائع اللغوية نفسها؛ أي تحويل اللغة إلى موضوع علم قائم بذاته.

فالألغة عند سيبويه أصبحت نظاماً له علاقات، ووظائف، وزّتب، وأبواب، وعلل، وقياس، وبنية داخلية. وليس المعنى أن سيبويه ظهر من فراغ، بل إن ما فعله كان أكبر بكثير من مجرد تطوير بسيط لما كان قبله.

ثم إنّ عاملاً آخر دخل وزاد الأمر تعقيداً وتوتّماً: البيئة العلمية.

حين أصبح النحو علماً، لم يعد مجرد وسيلة، بل صار مجالاً للتميّز. كل نحوي لا يريد فقط أن يشرح، بل أن يضيف؛ أن يأتي بتفسير أدق، أو تقسيم جديد، أو مصطلح لم يُستخدم من قبل. ليس بدافع المال وحده، بل بدافع المكانة: أن يكون له رأي، وأن يُنسب إليه مذهب، وأن يُذكر اسمه في السلسلة.

لكن هذا التنافس لا يخلق التعقيد من الصفر، بل يعمل كجهاز مسرّع. فكل مفهوم موجود يُعاد تفرّيعه، وكل قاعدة تُعاد صياغتها، وكل استثناء يُعاد تأويله. ومع مرور الزمن، لا تُحذف الطبقات القديمة، بل تبقى، وتُضاف فوقها طبقات جديدة.

والنتيجة أننا لا نتعامل اليوم مع نحو واحد، بل مع تاريخ متراكم من المحاولات.

في هذه اللحظة، يفقد النحو علاقته الأولى باللغة كما تُستعمل؛ لأن اللغة في الاستعمال لا تحتاج إلى كل هذا. الجملة تُبنى بدافع المعنى، والإيقاع، والسياق. أما النحو، فقد أصبح يلاحق الجملة بعد أن تُقال، ليعيد تفسيرها داخل نظامه.

وهنا يظهر التوتر الذي نحس به في الكتابة.

في الكتابة، نبي الجملة من الداخل: من إحساسها، ومن حركتها، ومن موقع كلماتها في الزمن. بينما النحو يأتي من الخارج: يسأل عن مواقع ثابتة، وعلاقات محددة، وتعريفات مغلقة.

لذلك يبدو لي أحياناً هذا النحو ساذجاً؛ لأنه يقدّم تفسيراً شكلياً لشيء أنتج أصلاً بطريقة غير شكلية. والأهم من ذلك أن النحو، في صورته المتأخرة، لا يهدف إلى مساعدتنا على الكتابة، بل إلى ضبط ما كُتب. هو علم يُغلق، لا علم يفتح.

من هنا، لا يكون الحل في رفض النحو، ولا في تبسيطه السطحي، بل في إعادة وضعه في مكانه الصحيح داخل عملية الكتابة.

أن نفصل بين مستويين لعملية واحدة:

مستوى يُعنى بصحة الجملة، وهذا مكانه النحو،

ومستوى يُعنى بقوة الجملة، وهذا مكانه الكتابة.

وحين نعود إلى الجملة من هذا الباب، لن نحتاج إلى هدم النحو، بل إلى تجاوزه مؤقتاً: أن نكتب أولاً، ثم ننظر بعد ذلك إن كانت الجملة تنكسر في موضع ما؛ لا نُعربها، بل نُصلح الكسر.

بهذا المعنى، فإن ما أحاول فعله في كتابي: أدوات كتابة القصة، وكيف تسرد قصة؟ وفي كتاب جديد قادم، ليس خروجاً على اللغة، بل عودة إلى لحظة سابقة في تاريخها: اللحظة التي كانت فيها الجملة تُبنى لفهم وتؤثّر، لا لتُفسّر داخل نظام.

وهذه، في النهاية، ليست ابتداءً في اللغة؛ إنما قراءة مختلفة لمسار طويل انتهى بنا إلى مكان لم يُصمّم أصلاً للكتابة. قراءة تريد العودة إلى اللغة في أثناء الكتابة، لا بعدها.

ولأن هذا الكلام يبقى نظرياً ما لم يُختبر داخل نص حي، فالأجدر أن نأخذ مفهوماً نحويّاً بسيطاً، ونرى كيف يعمل داخل الكتابة نفسها.

في المقال الجديد أتناول شيئاً مختلفاً: ليس الترتيب الذي يصنع المعنى، بل الغياب الذي يصنعه. حين تُهم قبل أن تُوضح، وتُعلّق قبل أن تُكشف، وتترك فراغاً قبل أن تملأه؛ تصنع توتراً لا تستطيع أي كلمة صريحة صنعه.

النحو يعرف هذا المبدأ ويُسمّيه، لكنه يراه في مواضع محدودة. الكتابة الحية تطبّقه في كل مكان.

فالنحو يعرف قاعدة بسيطة: الأصل أن يعود الضمير على ما قبله؛ تذكر الاسم أولاً ثم تُحيل إليه بالضمير. لكن العربية تخرج على هذا الأصل أحياناً فيأتي الضمير أولاً دون أن يعرف القارئ ما يعود عليه، ثم يأتي التفسير بعده. وهذا ما يسميه النحويون الإيضاح بعد الإيهام.

والسبب الذي يذكره البلاغيون بسيط. يقول القزويني: «إذا أُلقي المعنى على سبيل الإجمال والإيهام تشوّقت نفس السامع إلى معرفته، فإذا أُلقي كذلك تمكّن فيها فضل تمكّن... واللذة عقب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم»

لكن ما لا يراه النحو أن هذا المبدأ لا يقف عند الضمير؛ هو يسري في بنية النص كله.

الإيهام في كلمة واحدة

أشهر صور الإيهام المقصود هي ضمير الشأن؛ ضمير يأتي في بداية الجملة دون أن يعود على شيء ذكر قبله، ثم تأتي الجملة بعده لتفسيّرته كله. مثاله الأشهر:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

«هو» هنا لا يعود على شيء سبق. القارئ يسمّعها ويتوقف: هو من؟ ثم

تأتي «الله أحد» لتكشف. ويقول الرضي إن هذا الإيهام ثم التفسير يصنع تعظيماً: «لا بد أن يكون مضمون الجملة المفهومة عظيماً يُعتنى به، فلا يُقال: هو الذباب يطير».

الرجحاني يُعمّق هذا: «إن الشيء إذا أُضمّر ثم فُسّر كان أفخم مما إذا لم يتقدم إضمار». أي أن الكلمة حين تأتي بعد انتظار تكون أثقل مما لو جاءت مباشرة.

لكن ما يجري أكثر من هذا:

النحو يرى ضمير الشأن ظاهرة نحوية محدودة المواضع. والبلاغة ترى فيه أداة تعظيم. لكن ما لا يراه أحدهما أن هذا المبدأ يعمل في الكتابة الحديثة دون ضمير شأن بالمعنى النحوي.

خذ هذا المقطع الافتتاحي:

«عاد هذا الصباح أيضاً من عند طبيب القلبية بأنباء غير سارة.
لقد فقد قلبه الإيقاع.»

الفاعل ضمير مستتر «هو»؛ والقارئ لا يعرف من هو بعد. النحو يرى هنا إيجازاً مشروعاً. لكنه لا يرى أن الكاتب يبدأ من المنتصف عمداً، يرمي القارئ في عالم شخصية لم تُعرّف بعد. الضمير المجهول لا يُخبر القارئ بمن يتحدث، بل يجعله يبحث. وهذا البحث هو ما يشدّه إلى الأمام.

الفرق بين ضمير الشأن في الآية وهذا الضمير المستتر أن الأول إيهام في كلمة واحدة ينفرج في الجملة التالية مباشرة، والثاني إيهام يمتد؛ القارئ يبحث عن «هو» على مدى فقرات. لكن المبدأ واحد: الجهل المقصود يشدّ، والكشف التدريجي يُمتع.

لكن الإيهام لا يقف عند كلمة واحدة، هو يمتد أحياناً عبر جمل متتالية، يبني فيها التشويق طبقة فوق طبقة قبل أن يأتي الكشف.

الإيهام التدريجي

من مواضع عودة الضمير على متأخر ما يسميه النحويون «الإيضاح بعد الإيهام» في صورة التراكم؛ حين تتوالى جمل النفي أو الشرط قبل أن يأتي الكشف. ويقول صاحب «الطراز»، يحيى بن حمزة العلوي: «إن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مُهماً فإنه يفيد به بلاغة، ويكسبه إعجاباً وفخامة، وذلك لأنه يُفرغ السمع على جهة الإيهام».

ما تُشوّق إليه القارئ يصل إليه بجهد، وما يصل إليه بجهد يبقى فيه أعمق. أو كما قال البلاغيون: «الآتي بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب»، هذه العبارة تلخص المبدأ كله: المعنى الذي يُنتظر يكون أثمن من المعنى الذي يُعطى مجاناً.

لكن ما يجري أكثر من هذا:

النحو والبلاغة يصفان هذا المبدأ في حدود الجملة أو الجملتين. لكن مارسيل بروسيت في روايته «البحث عن الزمن المفقود» يطبقه على مستوى الفقرة كلها:

«لكن حين لا يبقى شيء من ماضي بعيد قائماً، بعد أن يموت الناس، بعد أن تتكسر الأشياء وتتناثر، لا يظل إلا الطعم والرائحة؛ وهما، على ما فيهما من هشاشة، أطول بقاءً، أكثر تجزّداً، أكثر دواماً، وأكثر وفاءً؛ يظلان زمناً طويلاً عالقين، كالأرواح، يتذكّران، ينتظران، يأملان، على أنقاض كلّ ما سواههما، ويحملان بثبات، في قطرة دقيقة تكاد لا تُدرك من جواهرهما، الصرح الضخم للذكرى.»

But when from a long-distant past nothing subsists, after the people are dead, after the things are broken and scattered, taste and smell alone, more fragile but more enduring, more unsubstantial, more persistent, more faithful, remain poised a long time, like souls, remembering, waiting, hoping, amid the ruins of all the rest; and bear unflinchingly, in the tiny and almost impalpable drop of their essence, the vast structure of recollection.

لكن حين لا يبقى شيء من ماضي بعيد قائماً،
بعد أن يموت الناس، بعد أن تتكسر الأشياء
وتتناثر، لا يظل إلا الطعم والرائحة؛ وهما، على
ما فيهما من هشاشة، أطول بقاءً، أكثر تجزّداً،
أكثر دواماً، وأكثر وفاءً؛ يظلان زمناً طويلاً
عالقين، كالأرواح، يتذكّران، ينتظران، يأملان،
على أنقاض كلّ ما سواههما، ويحملان بثبات،
في قطرة دقيقة تكاد لا تُدرك من جواهرهما،
الصرح الضخم للذكرى.

الطعم
والرائحة
يظلان
حيين،
جاهزين
لاستعادة
الذكريات
القديمة

قطرة واحدة قادرة
على استعادة
موجات من الذاكرة

الحواس التي توقظ الذكريات الخاملة

الطعم والرائحة يظلان إلى ما بعد العالم المادي

كيف تظل الحواس واعية بالماضي

حدود العالم المادي: لا شيء يبقى قائماً

مقطع من «البحث عن الزمن المفقود» / مارسيل بروسيت (1922)

الجملة تبدأ بتراكم من النفي — «لا يبقى»، «بعد أن يموت»، «بعد أن

الشخصية الغامضة التي غيّرت عالم المال، وأطلقت صناعة تُقدّر قيمتها بـ 2.4 تريليون دولار، وجمعت واحدةً من أكبر الثروات في العالم بضربة عبقرية مذهلة، كفيلاً بأن يوقظ في داخلي مزيجاً من الإعجاب والغيرة. لم أستطع الانتظار لمشاهدة الفيلم؛ فما إن وصلنا إلى المنزل تلك الليلة حتى فتحت تطبيق HBO Max وضغطت على زر التشغيل.

غير أنّ خاتمة الفيلم الوثائقي Money Electric: The Bitcoin Mystery لم تُقنعني؛ إذ ركّزت HBO على مطوّر برمجيات كندي استناداً إلى أدلة بدت واهية للغاية. مع ذلك، وبينما كنت أتابع هذا العمل المسلي الذي يجول في عالم العملات المشفّرة، استوقفتني مشهد بعينه.

كان آدم باك، عالم التشفير البريطاني وأحد أبرز وجوه حركة بيتكوين، جالساً على مقعد في حديقة بمدينة «ريغا» في لاتفيا، وقد بدا طرف قميصه خارجاً من حزام البنطال، يعلوه معطف بني. وأخذ المخرج، على نحو عابر، يسرد أسماء عدة يُشتبه في كونها ساتوشي. وعندما ذُكر اسمه، توتر باك، ونفى بشدة أن يكون ساتوشي، وطلب أن يبقى الحديث خارج التسجيل.

وقد صادفتُ في مسيرتي عدداً غير قليل من الكاذبين، واكتسبت شيئاً من الخبرة في التقاط إشاراتهم. لذلك بدا لي سلوك باك بعينه المراوغتين، وضحكته الخافتة المتكلّفة، وحركة يده اليسرى الخرقاء، مثيراً للريبة. وحين انتهت شارة الختام، أعدتُ مشاهدة ذلك المقطع مرات عدة على شاشة التلفاز.

وبينما كنتُ أتأمل ردّة فعله، خطرت لي احتمال آخر. فقد زُفعت دعوى قضائية ضد مدّعٍ أسترالي زعم زوراً أنه ساتوشي. فهل يمكن أن تساعد الأدلة التي كُشف عنها في تلك القضية، وقد نُظرت قبل أشهر قليلة في محاكم لندن، في فكّ هذا اللغز؟

كما يعلم كل من تعمّق في بواطن بيتكوين، كان ساتوشي بارعاً في إخفاء هويته على الإنترنت، فلم يترك وراءه سوى آثار رقمية نادرة، إن وُجدت أصلاً.

ومع ذلك، فقد ترك مجموعةً من النصوص، تشمل ورقة تأسيسية من تسع صفحات يشرح فيها اختراعه، إلى جانب منشوراته العديدة على منتدى Bitcointalk، وهو منصة رسائل إلكترونية كان المستخدمون يجتمعون فيها لمناقشة برمجيات العملة الرقمية واقتصادها وفلسفتها. وقد تبين أن هذه المجموعة قد اتّسعت على نحو ملحوظ خلال المحاكمة المدنية لذلك المدّع، حين نشر ماتي مالي، وهو مبرمج فنلندي تعاون مع ساتوشي في الأيام الأولى لبيتكوين، مجموعة نفيسة من مئات الرسائل الإلكترونية التي تبادلها معه. صحيح أنّ رسائل أخرى لساتوشي مع أوائل مستخدمي بيتكوين ظهرت من قبل، لكن أياً منها لم يقترب، من حيث الحجم، من مجموعة مالي. وكنتُ مقتنعاً بأن المفتاح؛ إن كان ثمة مفتاح، يكمن في هذه النصوص.

ومع ذلك، لا بد أنّ آخرين قد سلكوا هذا الطريق قبلي. فقد حاول صحفيون وأكاديميون ومحققون على الإنترنت كشف هوية ساتوشي على مدى ستة عشر عاماً، وطُرحت تلك الفترة أكثر من مئة فرضية، شملت طالباً إيرلندياً في علم التشفير، ومهندساً أميركياً من أصل ياباني عاطلاً عن العمل، وعقلاً إجرامياً مدبّراً من جنوب أفريقيا، بل وحتى عالم

تكتسّر — وكل نفي يُضيف طبقة من الغياب. ثم «لا يظلّ إلّا الطعم والرائحة» تأتي كالكشف بعد هذا التراكم. النحو يرى «إلّا» أداة حصر. لكنه لا يرى أن هذا الحصر لا يعمل بمفرده؛ قوّته تأتي من كل ما بُني قبله من غياب.

ثم تتوالى الأوصاف: «أطول بقاءً، أكثر تجرّداً، أكثر دواماً، أكثر وفاءً»، وكل وصف يُعقّق الإبهام: ما هذان الكيانان الهشّان اللذان يحملان كل هذا؟ حتى تأتي الجملة الأخيرة: «ويحملان بثباتٍ، في قطرة دقيقة تكاد لا تُدرك من جوهرهما، الصرح الضخم للذكرى».

«الصرح الضخم للذكرى» مفعول به مؤخّر؛ النحو يرى تأخيراً مشروعاً. لكن ما يصنعه هذا التأخير أنه يجعل المفعول يقع في نهاية الجملة بعد أن حُشر بين «يحملان» و«الصرح» كل ذلك الوصف الدقيق: «في قطرة دقيقة تكاد لا تُدرك من جوهرهما». التناقض بين القطرة الدقيقة والصرح الضخم لا يُحلّ؛ يُحبس في نهاية الجملة حيث يقع بكل ثقله على القارئ.

وحين يتجاوز الإبهام حدود الفقرة ليسري في النص كله، يتحول من أداة جملة إلى استراتيجية سرد.

الإبهام كبنية سردية كاملة

من أهم ما يذكره النحو والبلاغة في باب الإبهام أن «النفوس قد فطرت على حب اكتشاف المجهول»؛ وهذا ما يجعل الإبهام أداة سردية لا مجرد ظاهرة نحوية. وحين يمتد الإبهام على مساحة نصية كبيرة، يتحول من ضمير مجهول إلى لغز كامل.

يقول الفريزي إن المعنى حين يأتي بعد تشوّق «يتمكن في النفس فضل تمكّن»، أي أن الانتظار الطويل يجعل الكشف أعمق أثراً.

لكن ما يجري أكثر من هذا:

نص «رحلتي لكشف اللغز الأكبر لبيتكوين» يطبّق هذا المبدأ على مستوى النص كله:

بسبب طول النص، أوردته هنا قابلاً للطي: اللغز الأكبر لبيتكوين

في إحدى أمسيات خريف عام 2024، كنتُ أنا وزوجتي عالقيين في زحام السير على طريق لونغ آيلاند السريع، وحين ضاقت ذرعاً بمحطة الجاز-فانك التي اعتدتُ الاستماع إليها في أثناء القيادة، شغلت بودكاست.

كان البودكاست هو Hard Fork، برنامج التكنولوجيا التابع لصحيفة نيويورك تايمز، وكان مقدّمه يناقشان فيلماً وثائقياً جديداً من إنتاج HBO يزعم أنّه كشف هوية مخترع بيتكوين، الذي يستخدم الاسم المستعار ساتوشي ناكاموتو.

شدّني الموضوع على الفور. لطالما اعتبرتُ مسألة الهوية الحقيقية لساتوشي واحدةً من أعظم ألغاز عصرنا، وكنتُ قد حاولتُ استكشافها من قبل من دون جدوى. بل إنني، قبل عامين، أمضيتُ عدة أشهر أبحث في كتاب حول هذا الموضوع، لكنني أدركت سريعاً أنني أخوض في ما يفوق خبرتي، فترجعتُ على مضض.

وكان مجرد سماع أنّ شخصاً آخر ربما نجح أخيراً في تحديد هوية تلك

الرياضيات الذي صُوّر في فيلم A Beautiful Mind.

وقد استندت أكثر النظريات إغراءً إلى مصادفات تتقاطع مع القليل المعروف عن ساتوشي: أسلوب معين في كتابة الشيفرة، ومسار مهني غامض، وخبرة عميقة في المفاهيم التقنية الأساسية لبيتكوين، ونظرة معادية للحكومات. غير أنّ هذه النظريات كانت تنهار تحت وطأة حجة غيابٍ أو دليلٍ متناقض. وكان كل فشل يُقابل بشيء من السمات لدى كثير من أفراد مجتمع بيتكوين، الذين دأبوا على التذكير بأن ساتوشي وحده قادر على إثبات هويته بشكل قاطع عبر تحريك بعض عملاته؛ أما ما دون ذلك، فليس سوى أدلة ظرفية.

بدا من السذاجة أن أظن أنني قادر على حلّ لغز حير هذا العدد الكبير من الباحثين. ومع ذلك، كنت أتوق إلى إثارة قصة كبيرة ومليئة بالتحدي. لذلك قررت أن أحاول مرةً أخرى نزع القناع عن مبتكر بيتكوين الغامض.

«في إحدى أمسيات خريف عام 2024، كنتُ أنا وزوجتي عالقيين في زحام السير على طريق لونغ آيلاند السريع.»

الكاتب لا يبدأ بساتوشي؛ يبدأ بنفسه عالقاً في زحام السير. المجهول الحقيقي — هوية مخترع بيتكوين — لا يُذكر في الجملة الأولى ولا الثانية. الكاتب يبني طبقات من السياق الشخصي قبل أن يُدخل القارئ إلى قلب اللغز.

ثم حين يصل إلى آدم باك:

«وعندما دُكر اسمه، توتّر باك، ونفى بشدة أن يكون ساتوشي،

وطلب أن يبقى الحديث خارج التسجيل»

النحو يرى جملاً فعلية متتالية بترتيب سليم. لكنه لا يرى أن هذا التتابع: توتّر، نفى، طلب، هو نفسه بنية إيهام وإيضاح: كل فعل يفتح سؤالاً يُغلقه الفعل التالي جزئياً، لكن اللغز الكبير يبقى معلقاً.

والكاتب يُعلن هذا صراحة في النهاية:

«بدا من السذاجة أن أظن أنني قادر على حلّ لغز حير هذا العدد الكبير من الباحثين. ومع ذلك، كنت أتوق إلى إثارة قصة كبيرة ومليئة بالتحدي»

هذا إعلان عن الإيهام لا حلّ له. الكاتب يُبهم عمداً ليشرك القارئ في البحث لا في تلقّي الجواب. وهذا ما لا يستطيع النحو رؤيته: الإيهام هنا ليس ضميراً مجهولاً ولا حصراً بـ«إلا»؛ هو قرار بنايٍ يسري في النص من أوله إلى آخره.

النحو يمنحك مواضع محددة للإيهام المشروع. والبلاغة تخبرك أن الإيهام يُشوّق والإيضاح يُمتّع. لكن ما تعلّمه النصوص الحية أعمق: الكاتب الذي يفهم هذا المبدأ لا يسأل «أين أضع الضمير؟» بل يسأل «أين أعلّق قارئاً؟ وأين أفرج عنه؟»

الإيهام ليس غموضاً؛ الغموض يُخفي ولا يعد بشيء، والقارئ يشعر بأنه أُغلق عليه. أما الإيهام فعقد مع القارئ: أنت تعدّه بكشف، وهو يمنحك انتباهه حق يأتي. وحين يأتي الكشف بعد انتظار، يكون — كما قال القزويني — أقوى مما لو جاء مجاناً.

عن هذه النسخة

هذه نسخة PDF من مقالة نُشرت في موقع «المحرر». النص والصور كما هي في المقالة الأصلية.

«كيف يصنع الإيهام المعنى؟» — مِمَّا قُرأت · بقلم رشاد عبد القادر · ١٢ نيسان ٢٠٢٦
almuharir.net · تاريخ السحب ١٥ تشرين الأول ٢٠٢٦